# سعيد بنكراد: المدرسة المغربية متخلفة والعرب

## الناقد والسيميائي قال إن الداعين إلى الدارجة إما يج

**يحظى الناقد والمترجم والسيميائي سعيد بنكراد باحترام كبير في الأوساط الأدبية والأكاديمية، لما راكمه من اشتغال جِدّي ومضنٍ مكّنه من أن ينحت بعمق بصمة خاصة في الدرس السيميائي بالجامعة المغربية، ويفتح مجاله على قضايا جديدة، خاصة ما يتعلق بالصورة والبصري عامة، ثم بما خلّفه للمكتبة المغربية والعربية من إصدارات مهمة تربو عن 36 كتابا بين ترجمة وتأليف، ناهيك عن عصاميته في الحفاظ على انتظام مجلة «علامات» المتخصصة في الدراسات السيميائية، والتي ما زالت علامة صامدة في الحقل الثقافي المغربي منذ عددها الأول سنة 1994.**

**مَسَار فضّلَ فيه بنكراد أن يظل بعيدا عن الأضواء غير تلك التي تمنحها المعرفة، مكتفيا باصطياد فرائد النقد الحديث وترجمتها إلى العربية، خاصة ما يتعلق بمجال تخصصه، ووفيّا بالقدر ذاته لمطاردة المعنى واستنطاق العلامات بحس يؤمن بقدرة السيميائيات على تفكيك الأنساق الإيديولوجية والثقافية الموَجّهة لسلوك الناس.**

**ليس من العسير أن تصادفه بين الفينة والأخرى في هذا المقهى أو ذاك وسط العاصمة الرباط، غير صَادٍّ حَواسَّهُ عن ضجيج الحياة، حيث يستطيع باحترافية أن يمارس عزلته المعرفية وسط صخب المحيط، عبر الوفاء لطقسه اليومي في القراءة كأسلوب حياة. القراءة التي هي عنده قراءات متعددة بتعدد المعنى والرؤى في هذه الحياة.**

**في هذا الحوار نراجع مع سعيد بنكراد بعض انشغالاته المعرفية والبحثية، ونتعرف على حيثيات إصداراته الأخيرة، كما نحاول تقصي مواقفه من بعض المستجدات التي تحظى بالاهتمام.**

حاوره – **محمد عبد الصمد الإدريسي**

– لننطلق من الحاضر القريب.. انهممتَ مؤخرا بموضوع الوجود الافتراضي، وهو ما يمكن ملاحظته من خلال إصدارك ترجمتين على التوالي، الأولى تتعلق بكتاب «أنا أوسيلفي إذن أنا موجود»، والثانية «الإنسان العاري».. ما سر هذا الاهتمام بالموضوع من قبَلك كسيميائي؟

● **لا سر في الأمر، فجزء كبير من اهتماماتي واهتمامات السيميائيات عامة ينصب على الصورة. فما يتحدث عنه الكتابان هو في الجوهر الشكل الجديد الذي يُبنى من خلاله معنى الأشياء والكائنات، فالحضور الافتراضي في حياة الناس، اليوم، أقوى من حضور الواقع فيها. يتعلق الأمر بإسقاط عالم يتطور على هامش الواقع، إنه يسكن الصورة وحدها. وتلك هي المفارقة، فالصورة لا تدل على شيء ما، بل تدل على غيابه. وضمن هذا الغياب تتسرب الكثير من الدلالات التي نستعيد من خلالها نمطا جديدا في الحياة يمارس في «الوهم»، أي فيما يمكن أن تسلمه الصورة أو توهم به. وقد شرحت هذا التداخل بين الواقعين بشكل موسع في مقدمة كتاب «أنا أوسيلفي». وكنت قد كتبت مقالا عن «السيلفي» قبل ظهور هذا الكتاب (ماي 2016)، وكان في الأصل الدرس الافتتاحي الذي ألقيته في المعهد العالي للإعلام والاتصال في نوفمبر 2015، وفيه تحدثت عن الرغبة التي تستوعبها اللحظة «الأبدية» في انفصال عن دفق زمني هو الحاضن للحلم الإنساني. فما هو أساسي في بناء المعنى ليس المعيش، بل صورته، فتأمل البحر وحيدا لا قيمة له إذا هو لم يُصور ويُلقى في الشبكات الاجتماعية ويحصل على الكثير من «الجيمات».**

– ربما هذا الذي سميته «الوهم»، والذي تخلقه الصورة، أصبح وهما أكثر صدقا عند الناس من أي شيء آخر؛ بل يعيشون فيه أكثر من عيشهم في الواقع الحقيقي. هل ترى أن هذا من أخطر الآثار التي خلفتها الثورة الرقمية اليوم؟

● **يبدو لي أن الأمر كذلك. فالافتراضي لا يقدم حياة حقيقية، إنه يستبدلها بمجموعة من الصور يتبادلها الناس في مواقع التواصل الاجتماعي. فاللحظة، كما عبرت عن ذلك سابقا، لا تُعاش، بل يجب أن تُصور، فلا أهمية للفعلي، فقيمته مستمدة من الافتراضي. ولن أذيع سرا إذا قلت إن هذا الأمر يشكل خطورة على الناس من جميع الجوانب. هناك انشطار في هوية الذات وكينونتها: ما يقال في الافتراضي وما يُعاش حقيقة. إن الواقع مركب ومعقد ويعج بالمفاجآت وغير المتوقع والنسبي والعفوي، إنها الحياة بكامل النقصان فيها، أما الافتراضي فتتحكم فيه الصنعة، فالناس يقولون ما يود الآخرون سماعه أو رؤيته، فهم يبحثون عن مثيلهم ليكون صديقا. إنهم يلغون (يقتلون) المختلف الذي لا يشبههم. وتلك خطورة الحياة الافتراضية. وهذا ما يستهوي اليوم طلبتنا وتلاميذنا، ويجعلهم ينصرفون عن الكتاب إلى الصورة، بكل ما يعنيه ذلك من تراجع لدور اللغة في حياة الناس. والكثيرون لا يدركون خطورة هذا التراجع، ذلك أن المناطق التي تنسحب منها اللغة يستوطنها العنف. إننا لا نعرف العالم بالبصر، بل ندرك سرّهُ بالكلمات التي تعيد خلقه وَتحوله إلى رؤى.**

– هل نفهم من هذا أن ما تكسبه الصورة اليوم يأتي على حساب اللغة، وإذا استحضرنا أن ما يهدد اللغة ليس الصورة وحدها، وإنما هذه الهجانة اللغوية التي صارت تحيط بها من كل جانب؛ في الشارع وفي وسائل الإعلام وفي الكتب المدرسية التي بدأنا نسمع عن سياسات تدريج قادمة نحو المناهج، في نظرك ما مدى الخسارة أن تفقد اللغة مواقعها في حياة الناس؟

● **لا يتعلق الأمر بالمفاضلة بين الصورة واللغة. فهما يشكلان نمطين مختلفين في التعبير عن كينونة الإنسان، كما تعبر عن نفسها في العقل وفي المرفقات الانفعالية (نحيل هنا على الزوج الشهير الذي تحدث عنه أندري لورا –غورهان، الذي يجمع بين الوجه اللغة وبين اليد الأداة). لكن عندما تحل الصورة محل اللغة؛ فإن الأمر يختلف، ففي هذه الحالة ننتصر للانفعال ضدا على عقل يُنظم التجربة استنادا إلى لغة تُبنى في المفاهيم. أما المستوى الثاني من السؤال؛ فيشير إلى ما هو أكثر خطورة، فليست الصورة هي التي تنافس اللغة، بل ظهور زواج جديد بين صورة تُعد نظيرا بصريا يحتفي بلحظة عابرة في جسد يعرض نفسه في حسيّته من خلال يافطاته المباشرة، وبين لغة ليست موجهة لاستثارة دلالات تحتاج إلى تأويل قد يستعصي على الأذهان البسيطة، إنها تقول فقط ما «يجب أن تقوله»، إنها حسية، أي شفافة ووثيقة الارتباط بما تقوم بتعيينه. بعبارة أخرى، هناك ميل استعراضي لا يكتفي بالمتعة، بل يستجدي نظرة الآخر. وهذا ما يمكن أن نلتقطه من الخطاب المنتشر في أوساط الشباب، وفي جنبات المؤسسات التعليمية، بل في لغة الشبكات الاجتماعية وفي بعض الفيديوهات أيضا.**

– وماذا يمكن أن تقول عن نزوعات «التدريج» فيما يتعلق بالمقررات المدرسية؟

● **لا أريد أن أفصل القول في هذه القضية، فقد كتب فيها الشيء الكثير وسبق أن كتبت فيها مجموعة من المقالات، وسيظهر قريبا كتاب يتناول هذه القضية بالكثير من الدقة (العربية ورهانات التدريج). وفي جميع الحالات، فإن الداعين إلى الدارجة إما يجهلون أسرار اللغات وطرق اشتغالها، وهذا وارد عند الكثيرين، وإما ينتصرون لما أسميه «النموذج الجاهز». فعندما تفتقر الدولة إلى مشروع حضاري يُبنى وفق ممكناتها في اللغة والثقافة، تكون ميالة إلى استيراد كل شيء: السيارات والطائرات والقطارات، وبطبيعة الحال استيراد لغة «جاهزة» يمكن استنباتها في أي تربة دونما اعتبار للثقافة التي تسندها، بما فيها إنتاجها الفكري والأدبي. وهذا يصدق على كل المجالات، بما فيها إصلاح التعليم. وقد ارتبط هذا الإصلاح دائما بوجود نماذج تعليمية جاهزة يمكن استيرادها من بريطانيا أو فرنسا دونما اعتبار لحقائق التاريخ واللغة والعمق الحضاري للوطن. وحالة المؤسسات الخاصة لا تشذ عن ذلك. إنها تُخرج تقنيين يجيدون بعض تخصصاتهم، لكنها لم تنتج أبدا مواطنين جددا يمكن أن يسهموا في بناء صرح حضاري يستمد مضمونه من التربة المحلية.**

**والتاريخ شاهد على ذلك، فلم تسهم اللغات المستوردة في إفريقيا في إلغاء «حدود» القبائل في الأذهان والمتخيل، وفي الصراعات السياسية، والتداول على السلطة. لقد ظل هناك دائما نوع من الولاء للغة الدولة المستعمرة، وفي المقابل هناك انتماء قَبَلي تعبر عنه اللغات المحلية. هذا الوضع الغريب هو ما يحاول البعض استنساخه فيما تبقى من بلدان إفريقيا، الدول المغاربية تحديدا، فما لم يتحقق بمنطق التاريخ وقوانينه، يمكن أن يُفرض بالإرادة السياسية وحدها.**

– تعني أن مشكلة اللغة هي مشكلة إرادة سياسية أولا وأخيرا؟

● **بطبيعة الحال، فالعربية أخرجت من الفضاء العمومي بقرار سياسي. صحيح أن هذا الإقصاء لم يتم بصيغة قانونية، لكنه فرض بالممارسة، حيث اليافطات والواجهات تبحث في ذاكرة أخرى عما يغري ويشد الانتباه بلغات أجنبية أو بدارجة يعتقد البعض أنها تُطَمْئِنُ الناس والجمهور العريض على وضعهم الدوني ككائنات فقدت مواطنتها وتحولت إلى مستهلكين يعيشون من أجل البقاء حده. لذلك لن تستعيد العربية موقعها في الفضاء العمومي إلا بقرار سياسي، ويجب أن يتحقق هذه المرة بقانون يصالح المواطنين مع دستورهم الذي جعل العربية لغة رسمية.**

– يلاحظ من خلال أعمالك محاولتك فتح الدرس الأكاديمي على قضايا راهنة، نجد هذا في قراءتك لتأثيرات الرقمية، وفي تحليلك للإشهار المغربي، والنصوص المدرسية، والخطاب السياسي، وحتى في قراءتك للدستور المغربي، هل هذا نابع من تصور ما لدور الجامعة والمثقف عموما في ظل طغيان السياسي على المشهد؟

● **لم تكن المعرفة الأكاديمية منفصلة في يوم من الأيام عن هموم الإنسان في السياسة والاقتصاد والاجتماع. فنحن جزء من السياسة، بل نحن الخلفية**